خمسة في سيارة

٢

جرينوبل بلدٌ افرنسي محافظ على التقاليد الافرنسية . لا يعبأ بالاجانب الاّ قليلاً وذلك من ناحية السياح الذين يقصدون الى التصيد في جبال الالب ومن ناحية التلامذة الذين يأمون جامعتهُ

والصبغة الافرنسية غالبة على امرها في جميع ابواب الحياة الاجتماعية . فحبُّ التوفير ظاهر على كل اعمال الناس . والتقاليد التجارية العتيقة لا تزال سائدة في المصانع والحوانيت الاّ ماكان منها خاصًّا بلبس النساء . والقهوات تملأ شوارع البلد ولا تمتلئ بالناس الاّ القليل منها . وما يسمونهُ بمعدات الراحة العصرية من محلات لغسل الايدي او اماكن للمراحيض لا وجود لهُ الاّ على حالة قذرة فيرى المسافر وكأنهُ يعيش في عصر اجداده في الريف

على ان لهذا البلد شهرة واسعة في الهندسة الكهربائية ومدرستهُ في هذا الفن في مقدمة المدارس الاوربية . اما الفندق الذي حطّ به الرحال اصدقاؤنا الخمسة فلا غبار عليهِ وكانت غرفة المصري منهم رحبة نظيفة ولكنهُ لم يتمتع بالنوم ليلهُ من شر ما كان يسمع من الجلبة والضوضاء في الغرفتين المجاورتين لغرفتهِ اليمنى منها واليسرى على السواء

[illegible] قد مدت جذورها حتى [illegible]

فواحدهم اذا حلّ فندقاً ظنهُ ملكاً لآبائهِ واجدادهِ فيتصرف فيهِ تصرف المالك فيذهل عن جيرانهِ عند ما يدخل غرفته — والفاصل بينهُ وبينهم جدار من ورق او خشب لا يغني عن السمع شيئاً — فيغنّي تارةً ويضرب الارض بحذائهِ تارة اخرى ويمزح مع خادم الغرفة حرةً او يداعب زوجه مرة ثانية

فلم تكن هذه الحال مما يطمئن اليها صاحبنا المصري ولم تكن لهُ من جرأة الاوربيين والاميركيين ما يجعلهُ يتنمر جاره ان اصمّ وماكان لهُ من الاهتمام بحقهِ ما يعدو بهِ الى الشكوى الى مدير الفندق

وهذه نتيجة محتمة — او منطقية على قولهم — لتربيتهِ . فكأنّ الغاية العظمى من تهذيب الاولاد وتربيتهم في البلاد التي اصطلح الناس ان يدعوها بالشرق الادنى —

وعند المتكئين بالعربية على التخصيص — هي ان يكون خاضعاً خجولاً قانعاً متكلاً على القضاء والقدر

فالطفل منهم يصبح ويمسي بين انتهار الام وتوبيخ الاب ان هو ماشى الطبيعة التي اوجدته فقفز ولعب وصاح وكسر او سأل واستفهم . ولا تزيد تعاليم ابويه له عن قولها هذا عيب . قف استح . قبّل يدي جدك . لا تجاوب من هو اكبر منك سناً . فيكبر المسكين بين دافع الطبيعة الحرة وبين دافع التربية السقيمة خجولاً حائراً ويصير رجلاً مترددا مستعبداً او في نفسه قابلية العبودية للاشخاص وللتعاليم وللعادات . وليس هذا مما يؤهله لخوض معترك الحياة الشاق ودفع الناس بالمنكب حيث لا يجدي الدفع بالتي هي احسن

فلما اصبح الصباح واجتمع برفقائه رأى شكواه شكواهم ولكنه وجدهم ضاحكين للامر طابثين به فسكت ولم يبد اعتراضاً . وتقدم الرفيق الافرنسي باقتراح قال : ها نحن خمسة اتفقنا على السياحة فيما بعد او قرب من هذه الجبال وما وراءها فما بالنا لا نكتري سيارة نستمتع بها كيفما نشاء فنذهب ونجيء حيثما نريد غير مقيدين بتلك السيارة الضخمة ومواعيدها وبما تجمع من الراكبين . فاستحسن الجميع رأيه واجمعوا ان يكونوا في سيارة واحدة . وكان امراً مقضيًّا — فسميت هذه الرحلة (خمسة في سيارة) تخليداً لهذا الرأي الثاقب

وتصدرت السيدتان السيارة : الانكليزية الى اليمين والافرنسية اللبنانية الى الشمال وصاحبنا المصري على الرغم منه [illegible] وفتل شاربيه وتمطى بعد ان رأى الطبيعة قد رقّ مزاجه وارتفعت نفسه

وسارت السيارة تنهب الارض ما كان سهلاً منها وتقفز فيما ارتفع او انحدر قاصدة الى ما اتفق الخمسة على زيارته — فمن قمم جبال الالب ترتفع الى اكثر من ألفي متر عن سطح البحر

وكان الجوّ صحواً والشمس مشرقة وجمال الطبيعة يأخذ بمجامع القلوب وكأنت السفر طربوا لروعة ما رأوا فساد عليهم السكون موجهين كل قواهم الى رؤية ما حولهم. فمن جبال شاهقة مكسوة ثلجاً الى جبال تنحدر من تلك فتغطيها الاشجار الباسقة الى سهول خضراء ترعى فيها الابقار والاغنام وخرير الماء المنصب من الشلالات يعير الطبيعة موسيقى لا بأس بها حينما تمنع العصافير عن التغريد . وظلت السيارة في تصعيدها

حتى آذنت الشمس بالظهر او كادت وكان الركب قد بلغ قمة فيها محطة هي خان صغير يشرب فيه الساغ او يأكل او ينام . فشرب القوم واخذوا يمرحون على رأس الجبل ويلعبون كأنهم أطفال — ذلك ان سحر الطبيعة ينسي الانسان مدنية المدن نسياناً مؤقتاً فيعود به طبعه الغريزي الى عصر طفولته لاعباً مسروراً ذاهلاً عن كل ما في الوجود من بؤس وشقاء

وكان اسرُّ ما سرَّ صاحبنا المصري بقمة متحيزة مكاناً منفرداً من تلك القمة بيضاء من غير سوء — هي الثلج الذي سمع به ونظرهُ عن بعد على قمم الجبال ولكنهُ لم يكن قد لمسهُ عن قرب قط . فسار اليه ووقف الى جانبه وجلس يأخذ منهُ بيده كما يلتقط الولد حلية وعاد بقطعة منهُ الى رفاقه يقول لهم انها اول مرة لهُ في حياتهُ رأى فيها الثلج عياناً لعين ولمسهُ يداً ليد — فضحك القوم وهنأوهُ بفوزهِ المبين . ثم عادوا الى السيارة تتحدر بهم الى قرية تنتسب الى القديس جوليان على ان يتناولوا فيها غداءهم

ومرّوا بنفق يخترق جبلاً وهو النفق الذي مرَّ من فوقه — ولم يكن بعد نفقاً — نابوليون غازياً ايطاليا وجلسوا في مكان يدعى « مطعم نابليون » فرأوا هناك جمعاً لا يحصى من السياح في سياراتهم وكلهم جالس في هذا المكان لان رجل نابوليون وطأته وليس في الدنيا كاسم نابوليون سحر يأخذ على الناس عقولهم وعواطفهم !

فقد يتخشّع الناس لذكر نبي او رسول بفعل الدين وبحكم التربية اما هذا الكورسيكي الذي يأكل الطعام ويمشي في الاسواق فليس ابناً لاله ولا رسولاً يتلقى الوحي من السماء . ولكن اعمالهُ تفوق طاقة البشر فتراهم لا يملّون من تقديس كل أثر من آثاره عسكرياً كان ام مدنياً كأن البشرية تأبى الاّ ان تفرض على الناس ما لها عليهم من حق الاجلال والتعظيم

وكان اشد الناس اطناباً بنبوليون صاحبنا الانجليزي . فانهُ انتزع غليونهُ من فمه وقال ما تمنيت في حياتي الاّ امراً واحداً هو ان اكون قد ولدت في زمن هذا الرجل العظيم وسبان عندي اكنتُ انكليزياً محارباً او انكليزياً مصافياً فان فخر خصومته ليست باقل من فخر اطاعته ولا انتم على بلادي شيئاً نقمتي على حكومة تلك الايام تجور عليه اسيراً في جزيرة القديسة هيلانة

وارادت السيدة اللبنانية الاصل ان تتفلسف فقالت ولكنهُ يتم الاطفال وأيم النساء بحروبه ثم عاد بفرنسا في النهاية اصغر مما كانت عليه في البداية

لانكليزي — عفوك أيتها السيدة المحترمة . فان يكن نابوليون امات الالوف حرباً

فذلك خير من ان يتهم الوباء والفقر والسودية . ورب موت خير من الف حياة . ان هذا الرجل حطم قيود اوربا العتيقة وطهّر دمها الفاسد المتجمد فسرى في شرايينها سريانا جديداً حاراً كانت نتيجتهُ اوربا الحديثة وما هي عليهِ الآن من حرية ونظام

السيدة — أليس من سبيل الى هذه الحضارة الا الحرب ؟

زوجها — وهل من سبيل الى تصحيح جسم مكسّر الا بعملية جراحية ؟

الانكليزي — ليست الحرب معشوقتنا نحبها لذاتها ولكنها ضرورة من ضرورات النفس الحية دعي عنك الضرورة الاقتصادية والاجتماعية — فحب الحرب في الناس غريزة كغريزة الحركة في الاطفال فكما ان الطفل الذي لا يتحرك لا يعيش كذلك الرجل اذا فقد الخاصة الحيوية التي تجعلهُ مقداماً مقاوماً فاتكاً فقد اضاع كيانه

ما بالنا نعمى عن الامور فلا نراها كما هي — أليست الشعوب التي حاربت وغلبت هي الشعوب التي مدّنت وعمّرت ؟ وهل تقدم الكون بالصوم والصلاة ام بالجلاد والكفاح حتى اسمى مبادىء الدين السلمية اخذها البشر وحاربوا لاجلها وسفكوا الدماء انهاراً

ذلك ان الانسان جزء لا يتجزأ من الطبيعة . والطبيعة شاملة جامعة لكل شيء متناقض فلا تسير امورها الا بمساعدة الوقت والقوة والحيلة فاذا بعد الانسان عن هذه القاعدة سقط ومرّ المارّون وراءهُ بارجلهم على جسدهِ لا يرحمون

السيدة الانكليزية — اما كان خيراً وأبقى للجنس البشري ان يتعاون ويتضامن لا ان يتخاصم ويتطاحن ؟

المصري — يشير برأسه موافقاً

[illegible]

امامهُ آخر ضعيفاً فانهُ لا يعاونهُ ولا يتضامن معهُ في احوال الحياة العادية منها والادبية . واما اذا رأى حزاءهُ رجلاً مثلهُ قويًّا دفعتهُ المصلحة الى التضامن والتعاون

اجبلي كلّ الناس اقوياء تجعليهم كلهم متضامنين متعاونين . والويل للضعيف — هذه آية الطبيعة الذهبية

فاذا ما جاءت الرسل والانبياء وقالوا لنا غير هذا صدقناهم باقوالنا وكذبناهم باعمالنا

يقول رسل السلام : ان الحرب مضرة بالغالب وبالمغلوب . نعم . ولكن الامر ليس امر حكم عقل بل حكم عواطف . والشعوب تسير بعواطفها اولاً وورام يطوتها ثانياً .

واما النقل فالبشرية حديثة العهد به . وما ادرانا ألاّ يكون الحرب سلماً يتسلقه هذا الشعب مرة الى القمة ثم يهبط ويتسلقهُ شعب آخر

السيدتان معاً — ان الرجال وحوش ضارية

الافرنسي — بل حمام واغنام اذا حكمتن انتن أيتها السيدات

هذا واذا بالسيارة تهرول في مضيق معرج من واد هناك فكانت تميل بالرفقاء مرة الى الشمال فيميل صاحبنا المصري من غير سوء على جارته اللبنانية ثم ترتد مائلة الى اليمين فيميل صاحبنا على السيدة الانكليزية . وليخجل كل ظنان اثيم — فانهُ ان كان الاصطدام بجسم سيدة خيراً من الاصطدام بخشب السيارة وجلدها فان تربية الجميع وعلو اخلاقهم ما كانت تدع سبيلاً فيما بينهم لغير الاحترام الفائق والود الصافي

وظل الحال على هذا المنوال نحواً من نصف ساعة وحانت من الجالسين الاربعة التفاتة الى رفيقهم المصري فرأوهُ اصفر الوجه ممتقع اللون . فسألوهُ السبب فقال لا شيء — ثم اضطرب ووضع يدهُ تارة الى رأس معدته واخرى الى رأسه وقال اني اشعر كأني في البحر وقد اعتراني الدوار

وسمع السائق ذلك فقال هو دوار الجبال . فهل اصابك . ان كثيرين يصابون في الجبال بدوار كدوار البحر حذوك النعل بالنعل . فاشددْ عزمك قليلا فقد وصلنا الى المطعم او هو على قاب قوسين منا

واهتم الرفقاء كلهم بامر المصري فاعطتهُ احدى السيدتين ملحاً يتشقهُ واعطتهُ الاخرى ماء كولونيا يمسح به جبينهُ . أما هو فكان يذوب خجلاً وشكراً في ظاهره ويلعن ساعتهُ في باطنه ويقول لماذا أُصاب انا دون الناس بهذا الدوار دوار الجبال . ولقد كنت اظن الامر مقتصراً على البحار فاذا بي انا انا في البحر والجبل مرض في البحر ومرض في الجبل كأنهُ قدّر لنا سكان السهول ان نعيش عيشة الجذوء والخول فنظهر بمظهر الضعف امام هؤلاء الغربيين رجالهم ونسائهم

وجاء الفرج فوقفت السيارة ونزل السفر الى مطعم يأكلون ويشربون . اما الطعام فكان طعمها فاخراً واما النبيذ فلم يقدم عليهِ صاحبنا المصري الاّ مكرهاً مدفوعاً بعاملين عامل مجاراة الرفقاء وعامل الاستشفاء من الدوار . وفعل النبيذ فعلهُ فذهب عن المصري مرضهُ وسرّي عن الانكليزي فلم يعد يشير الى الدنيا اشارة الحاذق الاّ تلميحاً مفضلاً الوسكي على كل ما يحتسي

سامي الجريديني